

اللغة و الفكر و الازدواجية في التعبير: الواقع الجزائري نموذجا

الأستاذة علجية مرحوم جامعة منتوري قسنطينة

الملخص:

من المعلوم أنّ ظاهرة الازدواجية اللغوية لا تخصّ الجزائر وحدها. بل هي ظاهرة اجتماعية- ثقافية نجدها في معظم بلدان العالم إن لم نقل في جلّها. إذ من الصعب في الوقت الحالي، و حتّى في أوقات سابقة أن نجد أو نتصوّر بلداً ما يتكلّم لغة واحدة.

إنّ أغلبية بلدان العالم مزدوجة اللغة (Des bilingues). إن لم تكن متعدّدة اللغات (Des plurilingues). و الجزائر واحدة من هذه البلدان. إلّا أنّ الوضع في الجزائر- فيما يخصّ هذه القضية- يختلف تماماً عمّا هو في بقية بلدان العالم. ذلك لأنّ الازدواجية اللغوية في بلادنا، تشكّل ظاهرة لغوية مرضية. و هي إشكالية لغوية قائمة بذاتها، تستدعي المزيد من الاهتمام و البحث عن المعالجة.

Résumé :

Le bilinguisme n'est pas un phénomène propre à l'Algérie, c'est un des aspects socio-culturels et sociolinguistiques que l'on trouve dans plusieurs pays du monde. En effet, les pays où l'on ne parle qu'une seule langue sont assez rares. La majorité des citoyens de ce monde sont en réalité des bilingues sinon des plurilingues.

Par contre la situation du bilinguisme en Algérie est très différente à celle des autres pays dans le monde. Car, chez nous, le bilinguisme est devenu une problématique et une problématique- pathologique qu'il conviendrait de résoudre et d'en rechercher les remèdes.

اللغة و الفكر و الازدواجية في التعبير(*) الواقع الجزائري نموذجا

لا أخفي عليكم أيّها الجمع الكريم أنّني أردت أن أنتهز فرصة هذا اللقاء الذي يجمع بين مختلف الفئات المعنية بالازدواجية اللغوية: فئة المثقفين باللغة العربية و فئة المثقفين باللغة الفرنسية و فئة المثقفين باللغتين معا. و إنّني أراها فرصة ثمينة و مواتية لطرح مثل هذا الموضوع الشائك و المعقّد، موضوع الازدواجية اللغوية في الجزائر. و هو موضوع يشكّل - في وقتنا الراهن- إشكالية قائمة بذاتها في الواقع الثقافي الجزائري. و هي إشكالية تستدعي ممّا مزيدا من الاهتمام و العناية و البحث. عسى أن نصل إلى حلّ يرضي الجميع و يوحد بين أبناء الشعب الجزائري الواحد.

إنّ القضية اللغوية لا تزال، في بلادنا، قضية معقّدة تتسم بنوع من اللبس و الغموض، على الرغم ممّا كانت تتّصف به من الشفافية و الوضوح قبل مرحلة الاحتلال و حتى أثناء الاحتلال.

و لم تكن المسألة اللغوية - آنذاك - مطروحة على المستوى الوطني، و لم يكن أحد يشكّ أو يشكّك في أنّ اللغة العربية هي لغة البلاد، و لغة الوطن، و لغة الشعب و الأمّة، على الرغم من تعايشها الطويل مع لغة الاستعمار (اللغة الفرنسية). هذه اللغة التي كان ينظر إليها -عكس ما نراه اليوم- على أنّها لغة أجنبية في الجزائر يجب أن ترحل مع أصحابها و مستورديها . لم يكن في تلك الحقبة من كان يشكّ في قدرة اللغة العربية على استيعاب العلم و المعرفة. بل الجميع كان يؤمن إيماناً قاطعاً بأنّها تستطيع أن تتّسع و تستوعب من المفردات و المعاني و المصطلحات ما يفوق بكثير ما تستطيعه اللغة الفرنسية و غيرها من اللغات الأجنبية.

إنّ هذا الانقلاب الخطير ضد اللغة العربية، و هذا التهجم الكبير عليها و كذا التهكم من قدراتها العلمية لم يظهر - في حقيقة الأمر- إلاّ بعد الاستقلال الوطني. و بإمكاننا القول ، بعد الاستقلال السياسي فقط. لأنّ الاستقلال الفكري و اللغوي لا يزال - في اعتقادنا- منعدماً، و لم يتحقق بعد، و لن يتحقق - في نظرنا- إلاّ بعد أن تعود المياه إلى مجاريها و تستعيد اللغة العربية مكانتها الطبيعية في عقر دارها و بين أبناء مجتمعها.

أي بعد أن يعمّ التعريب في الجزائر و ينتشر في جميع الميادين و الأرجاء و خاصة بين أرجاء المؤسسات

(*) أقيمت هذه المحاضرة خلال اليومين الدراسيين الذين خصّهما مركز التعليم المكثف للغات CEIL لطريقة تعليم اللغة العربية للكبار. جوان 1990 جامعة منتوري قسنطينة . الجزائر.

التعليمية و على رأسها مؤسسة التعليم العالي و البحث العلمي. و نعني على وجه الخصوص تعريب الفروع العلمية في هذه المؤسسة . « لأنّ تعريب العلم هو تعريب للفكر»⁽¹⁾ و«التدريس باللغة الأجنبية يضعف العربية ذاتها، لأنّ اللغة كائن حيّ يولد و ينمو مع الزمن و يتأثر بالبيئة الطبيعية و الاجتماعية، فإذا ما جعل في عزلة، و أبعد عن مجاري الحياة و مساقات التطوّر، ضمّر و جمّد مكانه. و عندها يلتفت إلى اللغة أبنائها يعيرون عليها العجز و القصور، في حين أنّها تستوعبها لا قاصرة و لا عاجزة، و إنّما هم الذين ضنّوا عليها بالجهد، و حجبوا عنها عوامل النماء و التطوّر»⁽²⁾.

إنّ الحديث عن اللغة العربية حديث عن حياة هذه الأمّة، لأنّ اللغة مظهر لكلّ مجالات الحياة، فاللغة تفكير و مظهر لكل حيواتنا الأخرى في العلم و العمل و الفن . فيوم تصدّعت وحدة الأمّة العربية، و انهيار بنيانها، و قلّ عزمها ضعفت لغتها، و خبا ضياؤها، و تمرّقت أشلاؤها، و أصابتها علل كثيرة حرمتها الدقّة العلمية، و عوّقت في الأمّة تسامي روحها و عقلها و قلبها. «إنّ الوعي القومي متصلّ بالوعي الثقافي، و ليس من ثقافة أصلية دون لغة تستوعبها و تعبّر عنها... لأنّ عملية الإبداع و الابتكار لا تتمّ إلاّ بعد

تمثل صحيح للمعطيات التي تعبّر عنها اللغة الأصلية التي يتعلّمها الإنسان منذ طفولته المبكرة حيث تخالط مفردات هذه اللغة تفكيره و تدرج بيسر على لسانه فيأْتلف معها أخذًا و عطاء.»⁽³⁾

و على هذا فالمؤسسات التعليمية مدعوة، كما يقول الدكتور " شحادة الخوري"، إلى تحقيق التوازن الطبيعي بين الفكر و اللسان، بين المعرفة و اللغة ، ليكون ما يكتسبه الدارس تمثلاً فإبداعاً، لا استعارة فترديداً... فالإنسان العربي، ينبغي أن يعي ذاته. و ما وعيه للغة سوى وعي لذاته. ذلك أنّ اللغة العربية هي الجسم الواصل بين المتعلمين المتخصصين و بين أفراد المجتمع الآخرين⁽⁴⁾ - و ما عزل اللغة العربية و إبعادها عن العلوم الحديثة و التكنولوجيا المعاصرة سوى إضعاف لها. و ما إضعافها سوى إضعاف للأمة، و انتقاص من مقوّمات ذاتيتها الثقافية، و ارتباك لحركيتها الطبيعية نحو التحرّر و الاستقلال⁽⁵⁾.

ومثل هذه الحقيقة هي التي جعلت أحد المدافعين عن اللغة العربية يقول في أحد الملتقيات المخصّصة للتعريب)*: «لا استقلال بدون تعريب و لا تعريب بدون استقلال»⁽⁶⁾؛ فالاستقلال الكامل لن يتمّ إلا عندما نستقل فكراً و لغة. لأنّ الحقيقة التي يقرّها عالم اللسانيات تقول بأنّ اللغة هي الفكر و هي الذهنية و هي

(*) ملتقى " ابن باديس" للفكر و الثقافة الوطنية ، الذي خصص للتعريب و العربية. و الذي نظمه معهد اللغة العربية و آدابها . جامعة منتوري قسنطينة - الجزائر. أفريل 1990

الشخصية و الهوية و السمات الخاصّة التي تميّز بين الكائنات البشرية. فتعرّفها معاجمنا اللغوية بقولها: «اللغة أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم»⁽⁷⁾ و ماهي بمعناها اللفظي إلاّ هذه الألفاظ التي ينطق بها بنو الإنسان و تتكوّن من أصوات و مقاطع تنشأ عنها الكلمات فالجمل، بها يعبّرون عن مشاعرهم و خواطرهم... و يذيعون أفكارهم... وهي وسيلتهم الأبدية للتخاطب و تبادل الأفكار و المنافع و كلّ شؤون الحياة و قيمها، و صفتهم الفريدة الخاصة بهم المميّزة لهم عن سائر الكائنات»⁽⁸⁾

كما أنّ علماء الدراسات اللغوية في العصر الحديث ينظرون إليها على أنّها نوع من أنواع السلوك الإنساني وعادة من عاداته يكتسبها بالتقليد و الممران و التكرار، و هي بالتالي بهذا المعنى لغة بيئته مجتمعه⁽⁹⁾.

و اللغة نظام من نظم المجتمع الإنساني و ظاهرة من ظواهره، خاضعة لما تخضع له هذه الظواهر من عوامل التطوّر و الجمود ، و الرقي و الانحطاط، و الحياة و الموت. و لكنها أقوى ظواهر الاجتماع وأثبت أعرف الإنسان، تتطوّر ببطء، و تصمد في الصراع و لا تفنى إلاّ بفناء أهلها و اضمحلال مجتمعهم و انكسار شوكتهم بعد إسلام قيادتهم لغيرهم و استسلامهم للغزاة و ما إليها من العوامل القاضية.⁽¹⁰⁾

كل هذه الأقوال و كل هذه الآراء تؤكد بأنّ اللغة ليست مجرد وسيلة أو أداة للتعبير عن أفكار جاهزة كما يظنّ ذلك البعض، و بالتالي ليس لها أيّة علاقة بعملية التفكير و السلوك في الحياة، بل هي ، كما يؤكده علماء النفس اللغوي، التفكير ذاته. يقول في ذلك "آدم شاف" Adam Shaff (: «لا

يقتصر دور اللغة على كونها أداة تنقل الأفكار أو تعبّر عن الانطباعات، كالسيارة تنقل الركّاب من مكان إلى مكان، بل هي مخاض الفكر و ضرورته»⁽¹¹⁾ و يقول " فيقوتسكي" (Vygotsky) - العلم الروسي في هذا السياق: «إنّ الفكر لا يتبلور و لا يجد كماله إلّا باللغة و من خلالها»⁽¹²⁾. إذن هناك علاقة جدلية بين اللغة و الفكر. بحيث لا يمكننا فصل الأول عن الثاني أو الثاني عن الأول، و هما يشبهان في علاقتهما وجهان لعملة واحدة. أو كما يقول " فرديناند دوسوسور" (Ferdinand De Saussure) وجهان لورقة واحدة، لا نستطيع فصل أحد الوجهين من دون الآخر في آن واحد⁽¹³⁾. من هنا يبدو أنّ اللغة و الفكر نشاطان بشريان يتداخل عمل كل منهما في عمل الآخر، و يؤثر فيه تأثيرا مباشرا. فالمفهوم الفلسفي الشائع للفظّة " الفكر" يضمّ كل الظواهر الذهنية و النفسية و العاطفية في تمييز الإنسان عن الحيوان. «كل ما نعيشه و نحسّه و نفهمه كالخيال، العاطفة، المعرفة، الرأي، النية. و اللغة ما هي إلّا جزء لا يتجزأ من عمل الفكر، و من أهم المظاهر التي يسمو بواسطتها الفكر إلى التعميم والتجويد»⁽¹⁴⁾. من هذه الزاوية ينطلق "جان بياجي" (J. Piaget) في كتاباته (Généralisation et abstraction) حيث يؤمن ضمنا بالعلاقة القوية بين التفكير و التكلم. ف لغة الطفل تكون بالنسبة له المؤشر المثالي للعمليات الفكرية، كما تترجم بطريقة مباشرة أو آلية الذكاء، فيقول في ذلك: «لكي نفهم منطق الطفل، يكفي البحث في ميدان الحوار عنده و في تصرّفاتة الكلامية»⁽¹⁵⁾. و يبنّي نظريته الشهيرة في مرحلة الأنانية (L'égocentrisme) على ملاحظة كلام الطفل في هذه المرحلة، و هو كلام يتمحور حول "الأنا"، ولا يأخذ الطفل فيه بعين الاعتبار وجود الآخر. أي السامع لكلامه. « إنّ الطفل يتكلّم لنفسه و كأنّه يفكر بصوت عال»⁽¹⁶⁾. كما أنّ اللغة عنده ليست مجرّد دليل على نفس الطفل و عقله، بل إنّّه يعدّها من أهمّ «الوظائف الرمزية التي يتعامل بواسطتها الإنسان مع محيطه المادي و الاجتماعي»⁽¹⁷⁾. فاللغة من جهة أخرى، نتاج جماعي و ليست نتاجا فرديا - كما قد يبدو ذلك- و كلماتها و ألفاظها تحمل موروثات اجتماعية عامّة لأنّها كما يقول "دوسوسور: «تخضع دون انقطاع لتأثير الكلّ على الرغم من أنّ كلّ فرد يشارك دائما في فعلها و خلقها»⁽¹⁸⁾. و هي تبدو دائما نتاج إرث الأجيال السابقة⁽¹⁹⁾. هذا الإرث الذي يحمل معه إلى المتكلّمين بها كلّ الموروثات و العقلية و الذهنيات و السمات التي تميّزهم عن الآخرين.

و من هنا نلاحظ تنوّعها ، و الفوارق الألسنية التي تظهر في انتقالها من بلد إلى آخر أو حتى من منطقة إلى أخرى في البلد نفسه. و على هذا الأساس يمكننا التأكيد بأنّ اللغة فكر و عادة و عرف و سمات خاصة لطائفة ما. و بالتالي فهي الذاتية و هي الشخصية و هي الهوية. و بما أنّ اللغة هي العادة و العرف و السمات الخاصّة للطائفة التي تتكلّمها، كما يقول "دوسوسور"، فإنّ هي ليست وسيلة للتعبير أو أداة فقط لاستيعاب الأفكار- كما يذهب إلى ذلك بعض الناس، و بخاصة أولئك الذي

يعتقدون لغة من اللغات الأجنبية، تبريرًا لاستيلاء هذه اللغة على ألسنتهم- بل هي الفكر نفسه و هي الشخصية و الهوية أيضًا. و مهما يكن من أمر ، فإن قضية علاقة اللغة بالفكر قد تتجلى لنا أكثر إذا ما بحثنا في قضية ازدواجية اللغوية عمومًا و في الجزائر خصوصًا. من المعلوم أنّ ظاهرة اللغوية لا تخصّ بلدًا دون آخر. بل هي ظاهرة اجتماعية ثقافية طبيعية لا يكاد يخلو منها بلد من بلدان العالم. إذ من الصعب في الوقت الحالي و حتى في أوقات سابقة أن نجد أو نتصوّر بلدًا ما يتكلّم لغة واحدة. إنّ أغلبية بلدان العالم مزدوجة اللغة (Bilingue) إنّ لم تكن متعددة اللغات (Plurilingue) . وحتى تلك التي تبدو في الظاهر أحادية اللغة (Unilingue) ، فإنّها على مستوى التطبيق و الواقع متعددة اللغة.

كفرنسا مثلا التي تستعمل إلى جانب اللغة الفرنسية، لغتها الوطنية و الرسمية، لغات أخرى مختلفة و لهجات أخرى متعددة. كلغة " البيكار" Le Picard ، و"القالون" Le Gallon، و"النورمان" Le Normand ، و"الغاسكون" Le Gascon، و"الكطلان" Le Catalan ، و هي من اللغات الرومانية ، و"الفلامان" Le Flamand ، و"اللاوران" Le Lorrain ، و"البروتون" Le Breton، و"الباسك" Le Basque ، ممّا يسمّى باللغات الغيررومانية⁽²⁰⁾.

إلا أنّ و حدة اللغة الوطنية و الرسمية - في هذه الحالة- لا يتناقض مع وجود عدّة لهجات أو لغات محلية جهوية (مكتوبة أو منطوقة)، و لا يتناقض - كما يقول "د.أحمد بن نعمان"- حتى مع تدريسها(و لكن ليس التدريس بها !). ذلك أنّ اللغة الوطنية الرسمية تكون بمثابة الملكة المتربّعة على العرش الوطني . و تبقى اللهجات و اللغات المحلية المختلفة بمثابة الأميرات اللائي تساعدن الملكة في بعض الأمور دون أن تحلّل محلها بأيّ حال من الأحوال⁽²¹⁾.

لكن الوضع - في الجزائر- يختلف فيما يخصّ هذه القضية عن ما هو عليه في بقية بلدان العالم. ذلك لأنّ الازدواجية اللغوية في بلادنا تشكّل ظاهرة لغوية مرضية ، و أصبحت بالفعل إشكالية قائمة في الواقع الجزائري. ذلك لأنّ ظهورها لم يكن نتيجة وضع طبيعي أو اجتماعي أو ثقافي اقتضته الحاجة ، أو كان وليد تركيبة اجتماعية خاصّة، كما هو حال بعض البلدان الأوروبية المتعددة اللغات كسويسرا، و بلجيكا، و كندا...، بل وجودها كان نتيجة ظروف استعمارية فرضت على الجزائر طوال فترة الاحتلال الفرنسي.

فرنسا منذ دخولها الجزائر، و جهّت كلّ معاول الطمس و التخریب إلى اللغة العربية بصفتها الدعامة الأساسية للشخصية الجزائرية و سيادتها. فحاربتها بكلّ الوسائل و شتّى الطرق ، و حاولت أن تستبدلها باللغة الفرنسية و تفرضها عنوة على أبناء المجتمع الجزائري. الأمر الذي أدّى إلى نوع من القضاء على اللغة العربية وإضعاف الثقافة الوطنية الأصلية، و سيطرة اللغة الفرنسية - لغة المستعمر- و ثقافته الأجنبية على المجتمع الجزائري.

فوجد من جرّاء ذلك ، و مع مرور الزمن مثقفون جزائريون لا يتكلمون إلاّ اللغة الفرنسية و لا يعرفون اللغة العربية معرفة جيّدة. و في المقابل بقي الجزائريون الذين يعرفون العربية و ثقافتها بعيدين كلّ البعد عن اللغة الفرنسية و ثقافتها (على الرغم من تطوّرهما)، لا يريدون التقرب منها أو النهل من مناهلها، عدا القليل منهم الذين كانت لديهم مواقف معيّنة. و قد كانت لهذه المواقف الحذرة و المحافظة مسوّغاتها آنذاك. إذ لم تكن في حقيقتها سوى تحدّي للاستعمار و وجوده في الجزائر. حيث كان همّ هذه الفئة قبل تطوير اللغة العربية، المحافظة عليها من الضياع و الاندثار، برّدة فعل حذرة من كلّ ما هو فرنسي- أوروبي قد يعرض على المجتمع الجزائري للمسح و التشويه، أو قد يقطع الصلة بالقدمى الذي يملكون التراث.

و تعايشت اللغتان العربية و الفرنسية في الجزائر أثناء فترة الاحتلال على هذه الحال و على هذه الوتيرة. كل واحدة عدّوة للأخرى. و هو الواقع اللغوي الذي لا زلنا نعيشه إلى يومنا هذا، و يشكّل الأزمة الحقيقية للبلاد. و هو واقع خاص و فريد من نوعه. ذلك أنّه بدلاً من أن تكون هذه الازدواجية اللغوية ظاهرة إيجابية للثقافة الوطنية و رافداً من روافد تطوّرهما وانتعاشهما- كما هو الحال في بقية بلدان العالم- أصبحت عندنا ظاهرة سلبية مرضية تعمل- بالعكس- على عرقلة المسار التطوّري و العلمي للغة العربية (اللغة الأولى في البلاد و لسان حال الأغلبية في المجتمع الجزائري). و بدلا من أن تكون اللغة الفرنسية مكسباً عظيماً و غنيمة حرب حقيقية يحسد عليها الجزائريون، أصبحت محنة عليهم و نقمة بل وباء يهدّد كيانهم من الداخل. ذلك لأنّ الجزائري عندما تعلّم هذه اللغة منذ صغره، تعلّمها في المدارس الفرنسية التي حرّمته من تعلّم لغته الأم العربية و ثقافته الأصلية. فتعلّمها و هو بعيد عن مكوّناته الذاتية و مقوّماته الشخصية، الأمر الذي أدّى بمتعلّمي هذه اللغة - عموماً- إلى ما يسمّى بالاجتثاث و الانسلاخ و المثاقفة و إلى الشعور بنوع من الصراع الفكري- اللغوي (الصراع بين أنا و الآخر). و قد عبّر معظم الكتّاب الجزائريون الذين تثقّفوا بالثقافة الفرنسية عن هذا الصراع، و منهم الكاتب الجزائري "مالك حدّاد" أحد ضحايا هذه المدارس حيث قال: «إنّ الفرنسية هي منفاي الذي أعيش فيه...بلى يا أرغون (*) لو كنت أعرف الغناء...لتكلّمت العربية»⁽²²⁾ إلى أن يقول: « لا تلمني يا شاعر، يا صديقي إذا لم يطربك صداحي، لقد كنت أنادي أُمي في طفولتي: " يا مّة " و اسمها الآن في شعري " «⁽²³⁾Ma mère».

و كذلك الكاتب الجزائري " كاتب ياسين" الذي قال: «إنّني أمثّل الجيل الذي بدأ يفقد هويته بعد أن حرّمه الفرنسيون من تعلّم اللغة العربية. منذ بدأت الكتابة، استعملت اللغة الفرنسية كسلاح، أي أردت باستعمالي

(*) شاعر فرنسي، جزائري المولد (Louis Aragon)

اللغة الفرنسية، أن أفجّر من الداخل الاستعمار الفرنسي للجزائر»⁽²⁴⁾ إشارة منه إلى تلك الازدواجية اللغوية- الفكرية التي كان يعاني منها أثناء كتابته باللغة الفرنسية. هذه اللغة التي لم تكن على لسانه سوى وسيلة تنقل و تترجم أفكاره العربية المناهضة للاستعمار الفرنسي في الجزائر.

كما عبّر "مولود معمري" هو الآخر، و بطريقة أكثر وضوحاً، عن هذا الموضوع و هذا الصراع الذي كان يلزم الكتاب الجزائريين - عموماً- أثناء الكتابة باللغة الفرنسية. حيث قال: «تلقيت دروساً باللغة الفرنسية، وأنا أتوق إلى إتقانها و اكتساب ملكتها، لعدم وجود انسجام بين هذه اللغة و طريقتي الخاصّة في التفكير و التعبير. كان لا بدّ لي إذن من أن أقسّو على أحدهما لأجعلها طيّعة للآخرى»⁽²⁵⁾.

و قد قام "وارتبورغ" (W.Wartburg) بدراسة علمية في هذا الشأن، انتهى فيها إلى أنّ الطفل يتعلّم الألفاظ و الأصوات قبل الأشكال. فتصبح اللغة هي التي تسيطر على الإنسان بدلاً من أن يسيطر هو عليها كما يخيّل إلينا. فاللغة تمتلك الفتى كلما وجدت فيه مكاناً تتسع فيه، و تصبّ في ذهن المتعلّم كلّ العقلية الموجودة مسبقاً فيها، فخلافاً لمعطيات الجسم التي هي وراثية في معظمها، فإنّ الخصائص النفسية و العقلية تتجدّد في كلّ فرد⁽²⁶⁾.

و قول "وارتبورغ" هذا، يوحي بأنّ الذي يتعلّم لغة ما في صغره، و إن كانت هذه اللغة أجنبية، ينسجم معها و يذوب في كيائها. فيعتنق لاشعوريا مفهوماتها و رؤاها للحياة التي جمعتها فيها الأجيال المتعاقبة التي استعملت تلك اللغة. ففي هذه الحالة، يبدو أنّ الإنسان لا يعاني الصراع الفكري اللغوي الذي تحدّثه الإزدواجية على مستوى التفكير مثلما هو الحال في حالة إذا ما كان المتعلّم للغة الأجنبية لم يقطع صلته بماضيه و لغته الأصلية و الطبيعية- كما هو حال الأدباء الجزائريين الذين تعلّموا بالفرنسية و كتبوا بها*) (بل يجمع بينها و بين اللغة الأجنبية التي تمثّل لغة الثقافة في البلاد. في هذه الحالة يفضي الأمر إلى الإزدواجية الفكرية حتماً.

ذلك لأنّ اللغة الأصلية تفرض هي الأخرى على الإنسان رؤيتها و مفهوماتها، ثم تأتي اللغة الثانية فتقّم له مفهومات جديدة مختلفة عن الأولى اختلافاً كبيراً. وهكذا يقوم الصراع بين الاتجاهين أي بين رصيد اللغة الأصلية اللغة الأم، و رصيد اللغة الأجنبية المكتسبة.

و لا شك في أنّ هذا الصراع الفكري- اللغوي الذي يحصل على مستوى فكر الفرد الواحد، هو نفسه الصراع

(*) نقصد باللغة الأصلية و الطبيعية بالنسبة للكتاب الجزائريين، اللهجة المحلية التي كان يتكلم بها كلّ الجزائريون في حياتهم اليومية، و المنحدرة من اللغة الأم العربية الفصحى.

الذي ينعكس على مستوى الواقع الاجتماعي. إذ كما أنّ تعايش لغتين في فكر واحد يؤدي إلى صراع

و ازدواجية في الشخصية، كذلك تعايش هاتين اللغتين على مستوى الواقع الاجتماعي الواحد يؤدي إلى صراع الفئتين اللتين تتكلمهما. و الواقع اللغوي الذي يعيشه المجتمع الجزائري منذ الاستقلال أكبر دليل على ذلك.

يقول الدكتور "محي الدين عيّمور" في هذا المضمّن: «لا يمكن فهم الأزمة الجزائرية خارج إطار الدراسة المعمّقة لقضية اللغة، لأنّ الشرح اللغوي هو أخطر أسباب الأزمة الجزائرية»⁽²⁷⁾.

لقد حاولت الجزائر بعد الاستقلال أن تقوم بعملية التعريب و إرجاع اللغة العربية إلى مكانتها الطبيعية في البلاد كلغة للمجتمع، و كمقوّم أساسي من مقوّمات الشخصية . لكنها سرعان ما بدأت تتراجع و تتقهقر فاتحة الأبواب أمام استفحال اللغة الفرنسية و اللهجات المحلية أو ما يسمّى بالتعددية اللغوية و اللسانية.

و على الرغم من الخطوات الإيجابية التي حققتها عملية التعريب إلا أنّ الأمر لا يزال غامضاً إلى يومنا هذا، لغياب استراتيجية واضحة من قبل السلطة، بحيث ظلّ التعريب عملاً اجتهادياً أكثر منه خطة محدّدة توفّر لها الميزانيات و تعدّ لها الأطر و المناهج. و هذا ما جعل "د. محمد مصايف" يقول: «و بهذا يكون على وزارة التعليم الابتدائي و الثانوي أن تنظر نظرة جديدة إلى المكانة التي ينبغي للغة الفرنسية أن تحتلّها، أو بعبارة أخرى يكون عليها أن تنظر إلى طريقة التعايش بين اللغتين.... ينظر إلى مكانة اللغة الفرنسية في نظام تعليمنا... إمّا على أنّها لغة أجنبية كسائر اللغات الحيّة، و إمّا على أنّها لغة أجنبية محظوظة و بالتالي منافسة للغة الأم. و مثل هذا العمل لا يتطلب أكثر من العزيمة و التصميم و بعض التضحيات المادّية. »⁽²⁸⁾

و مثل هذا التذبذب و الغموض هو الذي جعل اللغة الفرنسية على لسان الجزائري لغة منافسة للغة الأم العربية. و بدلاً من أن تكون لغة ثانية تدعم معارفها و ترفد رصيدها، و وسيلة لتقديم الحضارة العربية للغرب، أصبحت باباً يدخل منه الاستلاب الفرنسي إلى مجتمعنا الناشئ و غاية سياسية - كما يقول الدكتور عميمور- هدفها الأوّل و الوحيد الإمساك بأعنة السلطة و الاحتفاظ بها بأيّ ثمن.⁽²⁹⁾

» وهكذا أصبح الشرح اللغوي واحداً من أهم عناصر الأزمة الجزائرية، حيث أصبحت هناك قلة تحاول فرض رأيها و أحياناً عن يقين بأنّها على حق.... و هو ما جعلها تلجأ غالباً إلى مراكز النفوذ السياسية لتستمدّ منها الدعم و الرعاية، و ذلك في مواجهة أغلبية تحاول إثبات وجودها و الدفاع عن بقائها، و غالباً عن يقين بأنّ القضية يمكن ألا تكون رابحة، لاختلال موازين القوى...⁽³⁰⁾

و الازدواجية بهذا المعنى حالة مرضية وحشية⁽³¹⁾ ينبغي معالجتها، و العمل على استبدالها بازدواجية أخرى طبيعية و أكثر إيجابية تستهدف بالدرجة الأولى التفتح على التطوّر العلمي و التكنولوجي و التواصل مع الآخر في إطار ما يسمّى بالالتحاق بركب الحضارة العالمية.⁽³²⁾

و لن يتحقّق لنا ذلك إلا بإعادة المياه إلى مجاريها، و استرجاع مكانة اللغة العربية في الجزائر، كلغة أولى تحتلّ مكان الصدارة في جميع الميادين و على جميع المستويات. و عندئذ فقط، يصبح تعايش أيّ لغة أخرى مع اللغة العربية لا يشكّل أيّ خطر على وجودها و لا يهدّد مصيرها. لأنّ الممتلك لناصية لغته و ثقافته لا يخاف أبداً تعلم اللغات الأجنبية أباً كانت. لأنّ دراسة الثقافة الأجنبية لا يمكن أن يتابعها على أفضل وجه إلا أولئك الذين لديهم قاعدة راسخة في ثقافتهم الأصلية.⁽³³⁾

و عندئذٍ يصبح تعلّم اللغات الأجنبية، و ما يسمّى بالازدواجية و التعددية اللغوية ضرورة و مطلباً لا يمكن الاستغناء عنه. " فمن تعلّم لغة قوم أمن شرّهم " و حتّى نأمن هذا الشرّ، علينا أن نتحصّن بلغتنا و ثقافتنا لتكون لنا الدرع الواقى من الانجراف و الانسلاخ و الذوبان. إنّ قوّة الأمم تكمن في قوّة لغاتها لأنّها فكرها. و قوّة اللغات تكمن هي الأخرى في قوّة أهلها لأنّهم المبدعون فيها و بها. و اللغات هي أوطان المعرفة⁽³⁴⁾ و الجزائر قد استرجعت سيادتها بعد كفاح مرير، و تضحيات جسام، و هي لا تريد أن تفقد هذه السيادة من جديد. بل تريد أن تتمنّ استقلالها بالمحافظة على شخصيتها و هويتها. و المحافظة على الشخصية و الهوية الوطنية و القومية لا يمكن أن يكون دون المحافظة على اللغة. و العكس صحيح. و السبيل الوحيد لتحقيق ذلك هو إفساح المجال للغة العربية في نظمنا التربوية و في حياتنا اليومية.⁽³⁵⁾

وما إضعاف اللغة العربية، و إهمالها بتغليب اللغة الفرنسية، سوى إضعاف و توهين للوحدة الوطنية و القومية، و تفكيك لتاريخها و طمس لمستقبلها و استلاب لهويتها⁽³⁶⁾ و قد صدق الأستاذ " عبّاس محمود العقّاد " حين قال: « إنّ الحملة على اللغة في الأقطار الأخرى إنّما هي حملة على لسانها، أو على أدبها و ثمرات تفكيرها على أبعاد احتمال. و لكن الحملة على لغتنا نحن (العرب) حملة على كلّ شيءٍ يعنينا و على كلّ تقليد من تقاليدنا الاجتماعية و الدينية و على اللسان و الفكر و الضمير في ضربة واحدة. لأنّ زوال اللغة في أكثر الأمم يبقّيها بجميع مقوّماتها غير ألفاظها. و لكن زوال اللغة العربية لا يبقى للعربي أو المسلم قواماً يميّزه عن سائر الأقوام و لا يعصمه أن يذوب في غمار الأمم فلا تبقى له باقية...⁽³⁷⁾ »

الهوامش:

- 1- شهادة الخوري: دراسات في الترجمة و المصطلح و التعريب. دار طلاس للدراسات و الترجمة و النشر. دمشق- سوريا- ط 1 (1989) ص: 47 .
- 2- المرجع نفسه . ص 149.
- 3- المرجع نفسه . ص 147.
- 4- المرجع نفسه . ص 147.
- 5- المرجع نفسه . ص 90.
- 6- د. أحمد بن نعمان: ملتقى ابن باديس للفكر و الثقافة الوطنية. أفريل 1990 . جامعة منتوري قسنطينة- معهد الآداب و الثقافة العربية.
- 7- ابن منظور: لسان العرب- المجلد الثالث عشر- دار صادر للطباعة و النشر- بيروت- لبنان . ط 1 - ص 12 / 11. و انظر " الخصائص " لابن جني. تحقيق محمد علي النجار. الجزء 1 . الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة 1986 . ط 3 . ص :

- 8- د. إبراهيم عبد الله رفيده : أصالة اللغة العربية و علومها. مجلة الفكر العربي. العدد 26. مارس 1982 ص: 04.
- 9- وقد لاحظ هذا المعنى من قبل "ابن خلدون" في مقدّمته . دار الشعب . مصر. ص: 522-523.
- 10- د. إبراهيم عبد الله رفيده: المرجع السابق نفسه. ص: 05.
- C.F.Adam Shaff : Langage et Connaissance, 11- 12 - Paris, Anthrops . coll . points. P: 144 د. إبراهيم عبد الله رفيده: المرجع نفسه. أنظر كذلك : د. بسام بركة: اللغة و الفكر بين علم النفس و علم اللسانية. مجلة الفكر العربي المعاصر. العدد 18- 19. شباط/آذار 1982. ص : 66.
- 13- فرديناند دوسوسور : محاضرات في اللسانيات العامّة . ترجمة يوسف غازي مجيد النصر. دار نعمان للثقافة 1984 ص 138.
- 14- د. بسام بركة : المرجع السابق. ص: 70.
- 15- Cahiers Vilfredot. Genève Droz 1966.N°:10 . P.139 : J.Piaget
- J.Piaget : Le langage et la pensée chez l'enfant. Neuchâtel, Delachaux et Niestlé 1923. P.18 -16
- 17- بسام بركة : المرجع السابق. ص: 65.
- 18- دوسوسور: المرجع نفسه. ص : 95-96.
- 19- المرجع نفسه . ص : 94.
- Josiane Boulet : Langue et Société. Mémo. Editions du seuil 1997.PP.48-49-50-51 -20
- 21- د. أحمد بن نعمان: الهوية الوطنية. الحقائق و المغالطات. دار الأمة للطباعة و الترجمة و النشر و التوزيع- الجزائر 1996. ص : 12.
- 22- مالك حدّاد: الشقاء في خطر. ترجمة ملك الأبيض العنين. مراجعة وتقديم سليمان العيسى. المؤسسة العربية للدراسات و النشر. بيروت. ط 2. 1979. ص: 14.
- 23- مالك حداد : التلميذ و الدرس... ص: 08.
- 24- عبد العزيز شرف: المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر. منشورات وزارة الثقافة. دمشق 1971. ص: 53-54.
- 25- أنور الجندي: الفكر و الثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا. المدار القومية للطباعة و النشر. القاهرة 1965 ص: 228
- Walter Wartburg : Problèmes et Méthodes de la linguistique. PUF. paris 1946. PP.214/216 -26
- 27- د. محي الدين عميمور: الجزائر: القبلة العنقودية. مجلة العربي . عدد 515. أكتوبر 2001. ص: 60.

- 28- محمد مصايف: في الثورة و التعريب. الشركة الوطنية للنشر و التوزيع. ط 2. الجزائر 1981. ص: 135-136 .
29- د. محي الدين عميمور: المرجع السابق. ص: 62 .
30- المرجع نفسه. ص: 62.

Chadly Fitouri: Biculturalisme, Bilinguisme et Education
-31. : éditeurs Neuchâtel. Paris 1983. P.34
Delachaux et Niestlé Ibidem : P.135 : « *Un bilinguisme dans un sens positif et non sauvage est indispensable à notre époque.* -32

Il doit pouvoir en les combinant intelligemment lier la langue de culture et de l'unité

nationale à une langue étrangère de grande communication » .

- 33- أس-أس- براور (S.S.Prawer) : الدراسات الأدبية المقارنة (مدخل). ترجمة عارف حذيفة. منشورات وزارة الثقافة. دمشق-سوريا. ط 1. 1986. ص: 05.

- 34- شحادة الخوري: المرجع السابق نفسه . ص: 128-129 .
35- مجلة الأصالة : العدد 17/18 : مجلة ثقافية تصدرها وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية. مطبعة البعث. قسنطينة- الجزائر 1973/1974.
36- دراسات في اللغة . منشورات الحياة الثقافية. وزارة الشؤون الثقافية . تونس 1975.
37- الحبيب المخ: دور اللغة العربية في تماسك شخصية الأمة و الحضارة. منشورات الحياة الثقافية 1974 .